

حاضرة المسيلة حسب الرحالة المسلمين وغيرهم من الرحالة الغربيين

The urban of M'sila according the Muslims travelers and others of occidental travelers

المؤلف الأول : أ.د عقاب بلخير

البريد الإلكتروني: ogabbelkeir@gmail.com . جامعة الآداب واللغات / قسم اللغة العربية وأدبها ، جامعة محمد بوضياف - المسيلة - ، الجزائر.

ملخص (لا يزيد عن عشرة أسطر) Article info	معلومات المقال
يعالج البحث موضوع كتابات الرحالة العرب والغربيين، وكيف صوروا المجتمع الحضني و بيئة الحضنة إجمالاً، على اختلاف طرائقهم في ذلك.	تاريخ الاستلام 2024/02/05 تاريخ القبول: 2024/02/22
لعل الرحالة العرب أول من قاموا بمسح لجغرافية المغرب العربي، وأخصه المغرب الأوسط، وما سجلوه في طيات كتبهم يبين عن وصف خارجي يركز على الموقع وأهم معالم الأمكنة ونشاطات السكان هناك، بينما الرحالة الغربيين ركزوا على العقلية الاجتماعية وعلى وصف مظاهر الحياة بين الناس في كل جوانبها و أخصها العادات والتقاليد وملحقات ذلك، ما يبين عن أغراض مختلفة لمثل هذه الرحلات في فترة استعمارية توسعية.	كلمات مفتاحية: حاضرة المسيلة/ الرحالة المسلمين / الرحالة الغربيين
Abstract (in english) <i>This research deals the writings of Arab and occidental travelers, and how they described Honda society, and all its places in general, despite their different methods of doing so. while the Arab travelers are the first who have carried out research on the geography, in particular of the median Maghreb, of which they have recorded external descriptions which concentrate on the sites and the most important characteristics of the places, and activities of locals, the occidental travelers focused on social mentality, and described people's lifestyles in all aspects including customs, traditions, etc., which shows the different purposes for such trips, during an expansionist colonial period..</i>	Keywords: Muslims travelers / occidental travelers/ M'sila according

مقدمة:

تُعد كتابات الرحالة الغربيين حول المجتمعات العربية عامة والمجتمع الجزائري خاصة من بين المراجع الهامة التي نُحِيلنا على صورة المجتمعات إبان فترات زمنية ماضية، كون هذه الكتابات حملت في طياتها لوحات حية لمظاهر الحياة التي عاشها الشعب الجزائري خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي.

ما يميّز اللثام عن فترة زمنية حرجة رسمتها يد الرحالة الغربيين للمجتمع الحضني وحواضره، ويكون إسقاطنا على منطقة الحضنة، من خلال دراسة إحصائية لما ألفه الرحالة الغربيين من كتب أو مقالات أو تقارير حول هذه المنطقة. وقد دفعنا إلى ذلك حب الوقوف على تلك الصورة العتيقة، التي تمثل موروثاً تاريخياً شعبياً متنوعاً للحضنة، والبحث عن نفس الصورة ومدى تشابهها في كتابات الرحالة الغربيين حول مناطق أخرى من الوطن.

إن هذا الموضوع يطرح العديد من التساؤلات التي طالما شغلت فكر الكثير من الدارسين الذين يشتغلون حول منطقة الحضنة و موروّثها الحضاري السحيق، ومن بين هذه التساؤلات:

- هل صورة المجتمع الحضني اليوم هي نفسها صورته إبان القرن التاسع عشر؟
- ماهي الخصائص الفنية التي امتازت بها صورة المجتمع الحضني إبان القرن التاسع عشر؟
- هل استطاع الرحالة الغربيون أن يرسموا لنا صورة حقيقية لهذه المنطقة وموروّثها الفني؟

1- عمران المسيلة بناء على ما وصفه الرحالة وما هو تراث مادي:

1-1- نظام القصور والقصبات:

إن مفهوم كلمة القصر كما ورد في لسان العرب " هو المنزل، وقيل كل بيت من الحجر قرشية، سمي بذلك لأنه تقصر فيه الحرم أي تجبس وجمعه قصور وفي التنزيل العزيز، ويجعل لك قصورا²¹، والمقصورة الدار الواسعة المحصنة وقيل هي أصغر من الدار، كما يعرف أنه ما شيد من المنازل وعلا وجمعه قصور.

أما القصر بالصحراء فإن له مفهومًا مغايرًا يمكن معرفته من خلال ما اتفقت حوله الدراسات الحديثة بأنه الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعًا نوعيًا، والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء به عند هجوم العدو³.

ويحيط بالقصر سور سميك محصن بأبراج معززة بشرفات ويحيط بالسور خندق عريض عميق يتم اجتيازه بواسطة أبواب متحركة مصنوعة من خشب النخيل مثلما هو الحال في كل من قصر تقرت⁴، وقصر ورقلة، وقصر الحجيرة، وقصر تمرنة القديمة، وقصر نقوسة بالجنوب الشرقي، وقصور تمنطيط بالجنوب الغربي، في حين قد يعوض السور أحيانا بالجدران الخارجية للبيوت والتي تشكل نتيجة تلاحهما سورًا حقيقيًا، وقد تجلت هذه الظاهرة في كل من قصر تمرنة الجديدة وقصر تماسين (بواديرغ) وقصر تاجموت بالأغواط، ويتوسط كل قصر قصبة خصصت لإقامة الحاكم مع عائلته زودت بدورها بسور معزز بأبراج وشرفات .

وقد أطلق على هذه القصور تسميات مختلفة ارتبطت بعدة معاني فوجد القصر الذي ينسب إلى ولي صالح كان له الفضل في وجوده واستمراره كقصر سيدي عمران، وسيدي خالد، سيدي راشد، سيدي يحيى ... وغيره.

¹ ابن منظور، لسان العرب، ج 5، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414 هـ، ص 100

² ينظر: قبائلية مبارك: تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، رسالة ماجستير، جامعة بسكرة، 2010، ص 16.

ينظر: تحولات البنى الاجتماعية وعلاقتها بالمجال العمراني في مدن الصحراء الجزائرية، دراسة سوسيو- أنثروبولوجية لمدينة تقرت

³ (وادي ريغ)، أطروحة دكتوراه خليفة عبد القادر، جامعة محمد خيضر- بسكرة 2011/2010

⁴ أيوب عبد الرحمن: من قصور الجنوب التونسي، القصر القديم، بحث قدم للمؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي، نشر في كتاب النقاش العربية في الوطن العربي، تونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، 1988، ص 130

واعتمادا على الشكل الخارجي دائما نط الدكتور عبد الرحمن أيوب¹، هذه القصور إلى ثلاثة أنماط مثله مثل من سبقه مع اختلاف من حيث التسميات إذ وجد النمط المستطيل البربري)، والنمط المربع (الروماني)، والنمط الدائري (العربي).

1-1- الفرق بين تسمية القصر والقصبة:

العرب في الغالب تطلق هذه الكلمة على كل ما له شبه كبير بنبات القصب - مجازا - وانتقلت بعد ذلك للدلالة على تلك المباني المحصنة ذات الأبراج العالية في كل زاوية قلما، نجدها ثنائية الأبراج أو دونهما تأخذ عادة شكلا بناثيا دفاعيا.

وتعرف القصبة بالأمازيغية باسم " تغمرت " التي هي تصغير لكلمة " اغرم " (القصر) وفي سوس يطلق عليها اسم " اكادير " و " تغمرت " هي: الدار الكبيرة المبنية بالحجر والتي لها أبراج في أركانها الأربعة وهي تقع في الغالب على مرتفع منعزل مشرف على حوض ماء أو على وادي وهي سكنى الملاك الكبير، أو الأسرة الكبيرة التي تضم كانونين فأكثر.

وعلى العموم فالقصبة هي سكن الحاكم، أما القصر فهو سكن العامة، وهما مشتركان من حيث النسيج والتراتب العمراني.

هذا ويأتي تشكل الأحياء ترتيبا تقادمية و ترتيبا بالنظر إلى مكانة المؤسس وكل القبائل التي وفدت تباعا ويكون التسلسل تنازليا وفقا لمسار الوادي الذي تتخلله جنائن وبساتين، وهذا هو الغالب في تشكل القصور، ثم تأخذ المدينة توزعا هامشيا نظرا لظهور نمو متصاعد، يدعو إلى الخروج عن النظام المعماري الأول فتتشكل قصبات داخلية، بما يمثل مجموع حواري تنتسب إلى الفئة الغالبة عدديا، أو تأخذ تسميتها من خلال الموقع الذي بنيت فيه وهكذا.

وقد سردت هذا الموضوع، لإبراز أنموذج لتشكيل القبائل داخل نسيج واحد بفعل الوفادة للشيخ أو الولي، ومجموع لقبائل التي تتبع ذلك بالتحالف والولاء والنسب والقراية، مع تشكل نسيج عمراني تنازلي يتم معه استقدام أو قبول قدوم فرق وطوائف أخرى تنضاف لهذا النسيج، لإحداث توازن مجتمعي وحتى عدائي يؤدي في نهايته إلى الغلبة التي تؤدي إلى تفكك وانحلال النسيج في أجزاء منه، بمعنى رجوع القبائل مجددا إلى الطابع البدوي بسبب غلبة فريق على آخر، وهذا النموذج ساد في البيئات التي مثلت بها سابقا والتي تشكل نموذجا

¹ تليس تعي بالأمازيغية الغرارة ، الجولق، الكيس الكبير. تاريخيا : تنحدر قبيلة أولاد تليس من شمال إفريقيا وفدوا إلى ليبيا من القيروان بتونس وهناك روايات تقول أنهم نزلوا في ورشفانة ثم انتقل جزء منهم إلى ورفلة، أما بالنسبة إلى المسيلة فيقال أن شخصا يدعى تليس يتشديد اللام قدم من الحجاز هو من أنشأ المكن المعروف بخربة التليس.

The urban of M'sila according the Muslims travelers and others of occidental travelers

مصغرا عن مفهوم العصبية والرياسة والغلبة، كما يبرز الطابع المدني الناتج عن التكتل والاندماج، لتقوية العصبية وتشكيل لحمة بالانصهار عن طريق المصاهرة والمصالح المشتركة تماما، هو الشكل نفسه لوجود الإمارات بالمغرب العربي.

تشكلت مدينة المسيلة من حاضرة هامة توزعت بين منطقة سيدي عمارة إلى غاية منطقة أولاد بديرة أي بمحاذاة وادي القصب.

منطقة حضرية هي منطقة الجنان الكبير إلى منطقة خربة التليس¹ والشتاوة² ومنطقة الكراغلة³ والجعافرة⁴ ومنطقة الكوش⁵ على اختلاف نشأة هذه الأحياء التي كان أقدمها المحمدية المدينة المحاطة بأسوار ولها أبواب ثلاثة. وهي في نفس الوقت منطقة عمرانية على شكل بساتين متلاصقة في كل بستان توجد دار ومساحة البساتين تتقارب من حيث المساحة أو تتباعد إلا قليلا.

وكانت مؤلفة من ثلاثة أبواب ويسكنها أغلب الأعراس التي شكلت منطقة الحضنة حاليا وهي:

سيدي أحمد بن بلقاسم ومن انتمى إليه.

سيدي سليمان أهل بريكة حاليا.

سيدي عثمان (العثامين) عين الخضراء.

سيدي حملة و أولاده .

وغيرهم مثل سيدي الغزلي أو غزيل سيدي عمارة ، سيدي عيسى ..

على تفاوت هؤلاء الأولياء في زمن التواجد وإن كان معاصر بين كل واحد منهم.

الحملات: بياضة وسد الغابة (منطقة بريقع وأولاد رمضان).

سيدي أحمد بن بلقاسم منطقة عين الخضراء مع سيدي عثمان (عين الكلبة).

¹ الشتاوة قبيلة أيضا أصولها من عائلات قادمة من ليبيا أو الحجاز ويقال في الانتساب الشتاوي.

² كرجل اسم تركي مؤلف من كور وغول ويعني ابن العبد والأصل فيه انتساب بين العنصر الانكشاري والعربي وبعد ذلك العنصر التركي والعربي.

³ الجعافرة هم من العرب وينسبون إلى جعفر الطيار حسب الروايات الشائعة.

⁴ الكوش من الكوشة وهي قبيلة من الأشراف اشتهرت بالأفراخ التي كان يطبخ فيها الجبر أو غير ذلك.

⁵ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 1، ص 433.

سيدي سليمان منطقة بريكة.

سيدي الغزلي أولاد دهيم.

سيدي بوخالفة نفس المنطقة التي يتواجد بها ضريحه. وغير ذلك

القبائل البائدة:

قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال.

حدث الخلاف بين هذه القبائل على الأرض واقتسامها وعندما حلّ سيدي بوجملين على المسيلة أقام الصلح بين هذه القبائل.

وبعد ذلك التجأت القبائل إلى اقتسام الحضنة عن طريق:

- الاتفاق أو البيع أو التحالفات من خلال الغلبة والسيادة وغير ذلك.

المهم أنه نط عمراني وجد في كل الغوطات والواحات بما يسمى القصور، وهي تأخذ لها أشكالا رباعية أو دائرية أو على النمط الروماني.

أما العمارة الأخرى فهي بمحاذاة زاوية سيدي بوجملين في بقايا مدينة المحمدية التي بناها علي بن حمدون، وهي سابقة لبناء القلعة 1007 م، لذلك لم تكن عامرة بكاملها لكون أن سكانها ذهبوا مع بن تومرت لبناء القلعة، ليشكلوا خلفية له هناك.

يذهب ابن أبي زرع الى القول أن أحسن مواضع المدن ينبغي لها أن تجمع خمسة أشياء ، وهي النهر الجاري ، و المحراث الطيب ، و المخطب القريب ، و السور الحصين و السلطان ، إذ به صلاح حالها و أمن سبلها و كف جبابرتها.

ولا يتم هذا الأمر مسaire لابن خلدون إلا على هضبة متوعدة من الجبل ، و إما باستدارة بحر او نهر بها ، حتى لا يوصل اليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو و يتضاعف امتناعها و حصنها¹ .

أما التشكيل الآخر فقد اضمحل وزال إلا آثارا منه، وهو العمارة الرومانية التي بقيت واقفة إلى غاية فترة الثمانينيات وزالت بعد ذلك تماما.

وبعد ذلك توسعت المدينة انطلاق من هذا التجمع نفسه، وهناك خمسة أحياء رئيسية زمن الأتراك وهي:

¹ أبو عبيد عبد الله محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، دار الغرب الإسلامي ، 1992 م ، ص 722 .

الشتاوة، خربة التليس، الكراغلة، العرقوب، الجعافرة، الكوش. ثم تلا ذلك حي طريق البرج وهو امتداد لحي الكوش، وفي الفترة الاستعمارية ظهرت أحياء أخرى مثل حي لاروكاد، حي الجاماس (انهار تماما) زمن ديغول، وحي الشواف، وحي فوريسي وهكذا.

1-2- عوامل الاستقرار في حاضرة المسيلة ومن بعد التوزع:

لنرصد تبدل وضعية المكان في محيط متسع الأرجاء ملأته عوامل التاريخ ورسخته الجغرافيا، من خلال توافد أناس جمعهم ارتباط ما في فترة ما، غير أن الطابع القبيل كان الأكثر سيادة وعمل على ترسيخ بنية المكان وتوطيده من خلال عوامل وأسباب مختلفة، شكلت المكان وفتحت فضاء سواء للتعايش أو للتطاحن من أجل غاية الاستقرار أو تعيين المساحات الرعوية ..

وستتناول هذه الاعتبارات من خلال تحديد تيمات تختزل لنا بني الإيجاد والتوزع و الاتساع والقرباية:

الإيجاد: قبل التوزع تكون هناك عملية إيجاد فاققسام وذلك ب:

- البيع (قصة سيدي أحمد بن بلقاسم وأولاد دراج مع سيدي علي بن تليس بن سيدي حملة).
 - الاحتماء والوجار.
 - التنازل والانتقال إلى مناطق أخرى.
 - الاستغلال بسبب وضع اليد.
- إعطاء أراضي بسبب تعميرها أو معاقبة أعراش أخرى (إعطاء قبائل الحشم مساحة واسعة من أراضي الحضنة لمعاقبة الموالين لثورة المقراني).
- بسبب التحالفات (أولاد عبد الحق المتحالفين مع الأتراك ونزولهم منطقة السعيدة سهل الحضنة).

التوزع: ويرصد ذلك من خلال:

- موطن الاستقرار بالنسبة للقبيلة الواحدة.
- موطن الاستقرار بالنسبة لمجموعة قبائل.
- الاحتماء والجيرة.

- عوامل الاستقرار بسبب المشاحنات المختلفة بين القبائل على السيادة.
- الاستقرار الأول لأغلب القبائل بقلعة بني حماد ثم بدأ التوزع في مناطق الحضنة المختلفة.
- اتخذ شكل التوزع القبلي نمطين أو فضاءين: توزع أفقي في المناطق المفتوحة وتوزع عمودي في المناطق الجبلية.
- الاتساع والقراة ويرصد ذلك من خلال:
- مناطق الرعي.
- البحث عن الاستقرار.
- مصادر الماء.
- الأراضي المفتوحة بدل المناطق الجبلية.
- تقارب يخص الرؤية الواحدة بمعنى الصرخة الواحدة.
- تقارب بسبب الموالاة.
- تقارب بسبب التوسع الأسري الواحد.

1-3- التبدل والتصالح:

ويكون ذلك من خلال كبر القبيلة والبحث عن مناطق الرعي، وما ينتج عنها من استغلال للمكان، غير أن هذا يتم من خلال أشكال تنامي وفقا للعلاقات بين القبائل ولا يتم غالبا خارج هذه العلاقات.

ويشكل عرش السوامع خير مثال لهذا التبدل في المكان من خلال التوزع الكبير عبر مناطق الحضنة المختلفة.

وقبل انتقال الأعراس إلى مناطق استقرارهم كان أغلبهم في منطقة المسيلة (مقامات الأولياء المتواجدين بالمسيلة، يدل على ذلك سيدي أحمد بن بلقاسم، سيدي عثمان، سيدي سليمان، سيدي الغزلي، سيدي حملة..).

وكانوا قد اقتسموا أبواب الحضنة الثلاثة وهي مداخل لأحياء في المدينة القديمة التي وصفها الرحالة (البكري، ابن حوقل وغيرهما)، لكن شب صراع بينهم حسمه سيدي بوجملين القادم من بجاية.

ثم شب صراع آخر حول عملية اقتسام الحضنة فشبهوها بالناقة وراحوا يقتسمونها بحسب أعضائها الرأس والصدر والذيل، وهو اقتسام يهتم بجغرافيا الموقع وليس بطبيعة التربة وحسب، لأن الحضنة كانت عبارة عن أراضي خصبة في مجموعها.

2- المسيلة تحت رؤية الرحالة المسلمين

يقول صاحب الروض المعطار أن: المسيلة من بلاد الزاب بالمغرب بقرب قلعة أبي طويل، وهي مدينة جلييلة على نهر يسمى نهر سهر في بسات من الأرض. ومنبع نهر سهر من مدينة الغدير، وأسس المسيلة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سمالك الجذامي المعروف بابن الأندلسي، فلما أتمها أمره الشيعي عليها، فلم يزل بها أميراً حتى مات في فتنة أبي يزيد، وبقي ابنه جعفر أميراً فيها وولي بلاد الزاب كلها، وجعفر هذا هو ممدوح محمد بن هاني الأندلسي الشاعر المشهور، له فيه أمداح حسان، وكان من أكثر أهل زمانه إحساناً والمسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة، وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير، وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال. وبها أسواق وحمامات، ويوجد عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وبها عقارب مهلكة لا يخلص من لدغها والعياذ بالله.¹

و يشير ابن حوقل الذي كان شاهد عيان خلال عملية بناء المسيلة من قبل الفاطميين الذين جعلوه أحد أعينهم فيقول : و من مقرة الى مسيلة مرحلة وهي مدينة محدثة استحدثها على ابن حمدون الملقب بابن الأندلسية ، وهو أحد خدام آل عبيد الله وخاصتهم ، وعليها سور حصين من طوب ، ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض و ليس بالعميق ، ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجاتهم.²

السور هذا هو ما يحيط بالمحمدية من كل جوانبها وبه أبواب قيل إنها ثلاثة وما يؤكد أن لها أبوابا هي مخارج ومداخل وهي أيضا مواطن كل قبيلة أو قبائل متحدة، قول صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب حينما كان في معرض الحديث عن وفاة المعز ابن باديس الفاطمي " و لم يعلم بوفاته سوى من ذكرناه . فأرادوا صرف الناس بأن يقولوا : إن الأمير قد أخذ دواء . فبينما هم في ذلك أتى الخبر

¹ محمد بن حوقل : صورة الأرض، ج 1، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938، ص 85.

² شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 24، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423 هـ، ص 198..

أن أهل مدينة الحمادية قد شاع عندهم موت باديس ، و أنهم أغلقوا أبواب الحمادية ، و طلعوا على سورها . و كأنما نودي في الناس بوفاته . فاضطرب لموته بنو مناد و جميع القواد . و خافوا من الفرقة و شتات الكلمة فأظهروا ولاية كرامت و أمر بالكتب إلى سائل الأعمال باسمه ، و لم يذكر المعز بن باديس...¹

يذكر ياقوت الحموي أنه "اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي في سنة 315 هـ / 927م، و نفس الشيء بالنسبة لما قاله المقرئ حيث كتب: " فلما كانت سنة خمسة عشر و ثلاث مائة سير المهدي ابنه أبا القاسم من المهدية إلى المغرب في جيش كثير فيصفر.. فوصل إلى ما وراء تيهرت، فخط برمحه في الأرض صفة مدينة سماها الحمادية "بينما البكري كتب "أسسها أبو القاسم اسماعيل بن عبد الله سنة ثلاثة عشر وثلاثة مائة" و انتهت الأشغال من بنائها سنة 317 هـ / 931م.²

يذكر أنه حينما توجه أبو القاسم محمد القائم إلى عهد عبيد الله المهدي على رأس حملة عسكرية إلى المغرب الأقصى و في طريق العودة أوعز إلى علي بن حمدون سالف الذكر بإنشائها و تحصينها وذلك بأن خط برمحه في الأرض شكل بنائها و هو على صهوة جواده وأطلق عليها آنذاك اسم الحمادية تيمنا باسمه وفقا لما فعله عبيد الله المهدي عند تأسيس مدينة المهدية بتونس و يقال انه جعل للمدينة بابين سمي أحدهما باب القاسمية نسبة إليه لأنه يكنى أبا القاسم و أطلق على الباب الآخر اسم باب الأمور.

يقول ابن حوقل مبينا أهم الحواضر في المغرب العربي في العصر الوسيط :

تتبعها أجزاء واسعة من المغرب الأوسط ولم تظهر في المغرب الأوسط في ذلك الحين دول مركزية قوية، فلا الدولة الرستمية ولا الأغلبية و لا الإدريسية ولا حتى الحمادية اتسمت بالقوة والاتساع، إنما كانت في أغلبها دولة متوسطة. أسست مدنا متوسطة أهمها كانت طينة المسيلة، تاهرت، قلعة بني حماد، بجاية وتلمسان.³

¹ تقي الدين المقرئ : اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشبال، ج 1، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط1، ص 72.

² محمد بن حوقل : صورة الأرض، ج1، ص84.

³ Isabelle Eberhardt: NOTES DE ROUTE Maroc-Algérie -Tunisie, Textes réunis par: Victor Barrucand, édité : les Birlapapey, bibliothèque numérique romande, 1908, P 70

3- المسيلة حسب وصف إيزابيل إبيرهاردت Isabelle Eberhardt

لعل الكاتبة الصحفية والرحالة السويسرية من أكثر الرحالة ارتباطا بالمكان، من خلال وصف صحفي قصصي يتجذر في المكان المحاط بناسه وكل ما يرتبط به، فوصفها ليس وصفا خارجيا، وإنما يحاول اختراق أفق العادات والتقاليد والاقتراب الحميمي من الإنسان في بيئته الطبيعية.

فهي تصفه في لوحته الطبيعية بكل مظاهره كما هو، وهي وإن كانت تركز على أماكن بعينها، لكنها في كل هذا تجتهد بأسلوب قصصي في وصف المكان لفتح أفق للمشاهدة الحسية والإحساس بالحركة والتفاعل داخل هذا المكان، ومما جاء في وصفها للمسيلة نبرز أهم المواضيع والعلامات الأساسية للمنطقة، في كل جوانبها المكانية والبشرية وما يحيط ذلك من معالم ومن تقاليد و أوصاف هي كالآتي:

3-1- وصف المكان:

المكان عند إبيرهاردت هو مساحة للمشاهدة البصرية والحسية معا، كونها تشتغل على أسلوب قصصي تخيالي، يحيط بالأمكنة ويستنطقها، لا مجرد مسح طوبوغرافي جامد، فالمسيلة تتشكل مبانيها من:

- حيطان من الطوب.

- أزقة ترابية.

- يتدفق الوادي في فراش من الحجارة البيضاء مع نفخة صافية صغيرة جدًا ، وتنتشر حدائق بوجملين (ولي صالح) ، ذات اللون الأخضر الناري.¹

- يقسم الوادي الذي يحمل اسمه (وادي القصب) المدينة جسر حديدي إلى قسمين، يسيل الوادي في قاع واد واسع وعميق على الحصى.

¹ *ibid*, p72.

- البناء الجديد (بناه المستعمر واسمه حي الظهرة)، حيث الشوارع واسعة ، و حيث لا توجد زوايا من الظل والغموض ، وحيث يتم التضحية بكل شيء - حتى الراحة - لمذاق الرومي الخطوط المستقيمة للمكان.
- على الضفة الأخرى من الوادي ، توجد البلدة القديمة ، المكدسة ، الفوضوية ، بكل منازلها المتكونة من طوب أسود وشوارعها المجهولة ، بدون محاذاة وبدون حجارة ، غير متوقعة بشكل مبهرج ومع ذلك فهي جميعها متشابهة.¹
- المسجد، الواقع على حافة الوادي، والذي تفتح نوافذه على الماء (الوادي).²

3-2- البيئة ومظاهر الحياة

- كل يوم رياح الخماسين تنفخ. لم تتركنا الريح الملتهبة، الجنة النارية للبوابات الحديدية. المسافات ملتهبة ومشوهة، والغبار يرتفع في دوامات رمادية تقرب على الطرقات. يطن الذباب بشراسة ولسعة متحمسًا بالحرارة.³
- ترتفع المسيلة القديمة ، محاطة بحدائق شديدة الخضرة وسميكة للغاية ، بينما تبرز منازل المدينة الجديدة ورائي ، تقريبًا باللون الذهبي ، مقابل تدرجات اللون الوردية لغروب الشمس.
- تنزل النساء إلى قاع الوادي ، مغلفات بأقمشة زرقاء أو حمراء ، ويحملن جلود الماعز ثقيلة في الأرض المسامية ... يمشن حافيات القدمين في الحصى والرمال ، ويضيفون علامات خاصة إلى هذا المشهد الساحر الهادئ.⁴
- الفتيات الصغيرات اللاتي يخرجن عند الغسق لجلب المياه العذبة من الآبار، في حدائق سوف المسحورة...
- الحدائق الخضراء المخملية حيث توجد بضعة رؤوس أشعث من نخيل التمر ، قبة كامنة ، صغيرة وغريبة الأشكال ، مبنية بالطوب.⁵

3-3- الثقافة الشعبية

طالب نحيف ذو لحية سوداء، ومغطى بغطاء رأس ولون أبيض، يشرح لرفيقه.

¹ *ibid*, p74.

² *ibid*, p74

³ *ibid*, p73.

⁴ *ibid*, p74

⁵ *ibid*, p72

الروح، كما يقول ، هي ما ينعش الجسد. يزيله الخالق أحياناً، إما مؤقتاً، كما هو الحال في النوم، أو بشكل دائم، كما في الموت. الروح مادة مضيئة تزفر أشعة بمجرد أن تتحرر من أغلال الجسد. ثم، اعتماداً على ما إذا كانت هذه الأشعة تسقط في العالم المرئي، على الأرض، أو ما إذا كانت تذهب إلى ما وراء ذلك، يرى النائم المدن والبلدان والأشجار والزهور والرجال والأنبياء والجيش التي تسكن الأرض... في ما بعده، يرى أحياناً شظايا من المجهول بعد الموت... ثم تنطفئ الأشعة وتعود الروح إلى سجنها الجسدي المظلم "...

وفي خضم اليأس الذي تعيشه المسيلة نائمة، يواصل السفسطائيان القصف بلطف شديد، بجو من الغموض، وعقائدهما السابقة، وسط الديكور الثابت للأرض والشمس...

3-4- اللباس

النساء: فتاتان صغيرتان مدبوغتان رائعتان، ترتديان ثياباً خضراء مبهرة، مع مشابك فضية وأوشحة حريرية حمراء مطرزة بالذهب على شعرهما الأسود.¹

الرجال: فساتين خفيفة، مزينة مثل الأصنام ، تقطر بعملات ذهبية ، يحافظون على ثبات التماثيل الطويلة ، ويعيونهم غامضة في دخان السجائر ... البرنس الأبيض للمسيحي.(المكان: المقهى حيث التجمعات الشعبية)².

3-5- لباس الخيول

- فرسٌ بيضاء جميلة ، مثقلة بالفيلاي الأحمر³.

3-6- الحضرة و الدروشة

في غرفة متهاكة في طوب قديم ، مهترئ ، مدخن ، تحت روافد السقف السوداء ، خمسة جذوع شجرة بالكاد مربعة بفأس ، لا تزال تحمل عروق الأشجار القوية في الجنوب ، مجموعة في عائلة غريبة . يضيء مصباح فقير مدخن، ثلاثة رجال ملثمين يضربون "البنادير" ويتأرجحون بشكل إيقاعي ، ويرددون ببطء ابتهالات القديس العظيم في بغداد (الصوفي صاحب البركات) ، سيدي عبد القادر ...

¹Ibid, meme page.

² Ibid, p73

³ Ibid, p71.

ويؤدي التوهج الأحمر للمصباح بلطف إلى تحريك ظلالهم المشوهة على الجدران، حيث تجري أحياناً العقارب الصفراء المخادعة الصغيرة أو الرتيلاء الرمادية.

في كل مكان ، على الحصر ، تتراكم الأجساد المكسوة باللف ، ملتوية في وضعيات بطيئة ؛ تمتد ملامح النسر نحو المطيرين ؛ عيون طويلة من الظل الأسود أو الذهب الخمرى نصف قريبة ...¹

3-7- وصف مظاهر الاحتفال و القعدات الخاصة في المقاهي العادات والتقاليد

- متسول أعمى عجوز ، يجلس القرفصاء ، يهز ببطء بنديره الرنان ، تتخلل هذه الضربات الباهتة رثاء الرجل العجوز ، الذي لم يعد لديه ساعات : باسم سيدي عبد القادر الجيلاني سيد بغداد ورب المرتفعات اعطوا الصدقات ايها المسلمون !
- في استراحة الجدران الخشنة ، على بساط ، يبدو أن رجلين ممدودتين يتناغمان في ظروف غامضة ...² .
- فتاتان صغيرتان مدبوغتان رائعتان ، ترتديان ثياباً خضراء مبهرة ، مع مشابك فضية وأوشحة حريرية حمراء مطرزة بالذهب على شعرهما الأسود ، تستمعان ، منتبهة ، جادة ، تقفان في وسط مقهى ، أم الريش وتبر و أم هاني .
- في زقاق مظلل ، يفتح الباب على فناء مضاء بشكل خافت .. في فساتين خفيفة ، مزينة مثل الأصنام ، تقطر بعملات ذهبية ، يحافظون على ثبات التماثيل الطويلة ، ويعيونه غامضة في دخان السجائر ... البرنس الأبيض للمسيلى ، و حرق الديرة الزرقاء ...
- ثم يرتفع أحد الأصنام مع قعقة كبيرة من الجواهر ، ويتبع الزائر في الظل الدافئ للخلايا الفقيرة .
- في حرارة الليل الشديدة. تهزها البنادير" و الكانتيلينات الدينية القديمة ورنين أساور أولاد نائل.

تشكل هذه الأوصاف علامات في غاية التكامل والدقة، على الأقل من حيث الملاحظة ورصد المكان وما يحويه بحوية ودقة فائقة، ويرجع ذلك إلى الطابع القصصي الذي سجلت فيه المشاهدات، فجاءت حية نابضة تلخص لنا حالة ووضعية الحضنة والمجتمع الحضنى، وتقدم لنا مادة هامة لفهم طبيعة وحياة هذا المجتمع، في حقبة استعمارية، حافظ المجتمع من خلالها على نمط حياته التي ورثها وما تبع ذلك من عادات ميزت هذا المجتمع، شأنه في ذلك شأن المجتمع الجزائري في تلك الحقبة.

¹ *ibid*, p70

² *Ibid*, p72

كحوصلة لما سبق، يمكن أن نقول أن هناك اختلافا بين الرحالة العرب والرحالة الغربيين؛ ففي حين يصف الرحالة المسلمون المسيلة من خلال موقعها وما تحويه المدينة من علامات تجارية خصوصا وبعضا من وصف محيط المدينة الأسوار وواديها، فإن الرحالة الغربيين يصفون ما تحويه المدينة من العنصر البشري بكل صوره ونوازه وتنوعاته.

الخاتمة:

والحقيقة أن كلا من هؤلاء الرحالة تظل غايتهم إما رسم مخطط للمنطقة مع كل المناطق الأخرى للمدائن التي زاروها، وهذا يقرب إلى التحديدات الجغرافية وفي مصطلحاتنا الحديثة المخططات الجيو-سياسية، وهذا شائع لدى الرحالة العرب وأخصهم ابن حوقل، و إما يجعلون غاية عملهم محاولة فهم المجتمع من الداخل للتعريف به وتقديمه إلى المجتمع الغربي والمستعمر بالدرجة الأولى وهذا ما سعى إليه الرحالة الغربيون. غير أن هذا كله ما يهمننا فيه هو تاريخ المنطقة والحفاظ، أو على الأقل تأريخ للمنطقة ودراسة كل ما يمت بصلة للعادات والتقاليد، وما له صلة بالتراث المحلي والوطني عموما.

قائمة المصادر والمراجع:

1 ابن منظور، لسان العرب، ج 5، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414 هـ.

2 ينظر: قبايلية مبارك: تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، رسالة ماجستير، جامعة بسكرة، 2010.

3 ينظر: تحولات البنى الاجتماعية وعلاقتها بالمجال العمراني في مدن الصحراء الجزائرية، دراسة سوسيو- أنثروبولوجية لمدينة تقرت (وادي ريغ)، أطروحة دكتوراه خليفة عبد القادر، جامعة محمد خيضر- بسكرة 2010/2011.

4 أيوب عبد الرحمن: من قصور الجنوب التونسي، القصر القديم، بحث قدم للمؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي، نشر في كتاب النقائش العربية في الوطن العربي، تونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، 1988.

5 تليس تعيي بالأمازيغية الغرارة، الجولق، الكيس الكبير. تاريخيا: تنحدر قبيلة أولاد تليس من شمال إفريقيا وفدوا إلى ليبيا من القيروان بتونس وهناك روايات تقول أنهم نزلوا في ورشفانة ثم انتقل جزء منهم إلى ورفلة، أما بالنسبة إلى المسيلة فيقال أن شخصا يدعى تليس يتشديد اللام قدم من الحجاز هو من أنشأ المكن المعروف بخربة التليس.

- 6 الشتاوة قبيلة أيضا أصولها من عائلات قادمة من ليبيا أو الحجاز ويقال في الانتساب الشتاوي.
- 7 كرغل اسم تركي مؤلف من كور وغول ويعني ابن العبد والأصل فيه انتساب بين العنصر الانكشاري والعربي وبعد ذلك العنصر التركي والعربي.
- 8 الجعافرة هم من العرب وينسبون إلى جعفر الطيار حسب الروايات الشائعة.
- 9 الكوش من الكوشة وهي قبيلة من الأشراف اشتهرت بالأفران التي كان يطبخ فيها الجبر أو غير ذلك.
- 10 ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 1.
- 11 أبو عبيد عبد الله محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1992 م.
- 12 محمد بن حوقل : صورة الأرض، ج 1، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938.
- 13 شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 24، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.
- 14 تقي الدين المقرئزي : اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، ج 1، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط 1.
- 15 محمد بن حوقل : صورة الأرض، ج1.
- 16 Isabelle Eberhardt: NOTES DE ROUTE Maroc-Algérie –Tunisie, Textes réunis par: Victor Barrucand, édité : les Broulapapey, bibliothèque numérique romande, 1908,